وبأي حال يكون المرء الذي سيمضي العيد بعيداً عن أسرته؟

وكيف تكون الأسرة التي انقطع عنها المعيل الوحيد، قال لي أبو محمد: ترى هل سيشتري أحد لأولادي ثياباً جديدة. وبدأ يجهش بالبكاء.

في الحقيقة كان البعض يبكي كالأطفال والبعض انقطع عن الطعام وعن الماء، والوجوم يسود الجميع. وعندما استيقظنا بدأت هتافات «الله أكبر، لا اله الا الله» تصدح في أرجاء المعتقل. ورغم محاولة الجنود منعنا، الا أننا استمرينا في تحدي قوانينهم؛ أقمنا المهرجانات حيث ألقيت الخطب الوطنية في بعض المعسكرات.

وكنا نقول لبعضنا: الصمود، هو وحده الكفيل باخراجنا من هذا القبر!!

وفجأة، حوالى الثانية عشرة تقريباً سمعنا صراخاً انتفضنا من الخيم. خرجنا مذعورين ما الذي يجري في الخارج. صعدنا على أشلاء حديد المراجيض.. فاذا بتظاهرة نسائية متجهة الى المعسكر تضم أطفالاً صغاراً وكهولاً تهتف «الله أكبر الموت للطغاة»، والجنود الصهاينة يحاولون تفريقها ومنعها من التقدم..!

عندها انفجرنا كالبراكين فقدنا ترددنا ودب الحماس فينا، كيف لا وأمهاتنا وأخواتنا جئن الى المعتقل ليطالبن بنا — ولقضاء العيد معنا — هبت المعسكرات كرجل واحد والكل يصرخ «الله أكبر الموت للطغاة». وكم كان المشهد معبراً، البعض أغمي عليه من شدة الفرح؛ البعض لم يصدق ما يحدث في الخارج؛ التظاهرة مستمرة وصراخ النسوة يعلو. ونحن لو استطعنا لطرنا في السماء من أجل لقائهن ومعانقتهن ولكن جنود العدو استنفروا بكثافة وهجموا على النساء والأطفال، مطلقين عليهم القنابل المسيلة للدموع، عندها طار صوابنا، فعلا صراخنا «الموت للطغاة».

وصوب العدو بنادقه نحونا — انها طلقات في الهواء.

— أنظر لم تعد طلقات في الهواء انها طلقات في اتجاه العدو.

— لا تخف.. الرصاص لا يخيف، نحن شعب لا يخاف الموت من أجل الكرامة.

— أنظر تلك هي أمي تلك أختي، ذاك أخي وتتصاعد الانتفاضة؛ وتتعانق المناديل مع الحجارة. وتبدأ المعركة؛ صراخ النسوة يتصاعد؛ يطلقون الرصاص عليهن؛ ونحن نرشقهم بالحجارة، بالصخور، باللاعق؛ بعض الجنود وقع أرضاً — البعض ولى هارباً. الرصاص يطلق بكثافة — أحد الأصدقاء أصيب في يده ومازال يحمل حجراً لرشق الجنود — سقط «زهير» و«علي» و«محمد».

أصيب حوالي ٢٤ جريحاً؛ عندها هبت العاصفة؛ هجمنا على البوابات لاقتلاعها؛ بعضنا حاول تقطيع الأسلاك بأسنانه؛ سيارات الاسعاف أنذرتنا اذا لم نتوقف لن يأخذوا الجرحى. ذهب كل واحد الى مكانه واستمروا حوالي نصف ساعة حتى أخذوا الجرحى بل أن البعض فارق الحياة نتيجة التلكؤ عن الاسراع بمعالجته.

بعد الانتفاضة شعرنا أن شيئاً قد حققناه يعادل الافراج عنا، قد نكون مخطئين ولكن هذا كان شعورنا العفوي.

الحرية

بعد أربعة أشهر في المعتقل أفرج عني فشعرت أنني خارج من قبر، صعدنا الى